

ساعة الغياب

حمادة حامد محمود نور الدين

في زقاقٍ ضيّق خلف سوق «الغورية» القديم، كان للعمّ إدريس دكانٌ لا يزيد عن مترين في ثلاثة، جدرانه من الخشب إلى السقف، وعلى كلّ شبرٍ منها ساعةٌ تدقّ. ساعات جيب، وساعات حائط، وساعاتٌ بكوكو، وساعاتٌ بلا عقارب. كان أهل الحيّ يسمّونه «صانع الوقت»، وهو لا يحبّ الاسم. يقول إنّه مصلّح، وإنّ الوقت لا يصنعه أحد.

كلّ ساعةٍ في دكانه تعمل، ولا واحدةٌ منها تتفق مع الأخرى. هذه تقول الثالثة، وتلك السادسة، وثالثة تقول إنّ اليوم الخميس رغم أنّه الثلاثاء. وحين يسأله زبونٌ عن السبب، يجيب: «كلّ ساعةٍ تحتفظ بوقت صاحبها. ولا يملك أحدٌ أن يغيّر وقت غيره.»

وكانت له قاعدة غريبة: لا يصلح ساعةً إلا إذا حكى له صاحبها ما حدث لحظة توقّفت. «الساعة لا تتعطّل من فراغ،» يقول، «وراءها دائماً قصّة.»

في صباح يومٍ ممطر، دخل الدكان رجلٌ في الأربعين، رثّ الثياب، يمسك بكفّيه ساعةً صغيرةً مطليّة بالفضة. وضعها على الطاولة وقال: «أريدك أن تعيدها إلى الحياة. هي كلّ ما ورثته من أبي.»

أمسكها العمّ إدريس بملقطٍ رفيع، وفتح غطاءها الخلفي. نظر في الداخل طويلاً. كانت التروس نظيفة، والزنبرك سليماً، والمينا سليماً. لا عيب فيها على الإطلاق. قال: «ساعتك سليمة يا بنيّ. هي واقفة لأنّها تنتظر.»

«تنتظر ماذا؟»

«لا أدري. لكنّها لا تدقّ لأنّها لا تريد. أخبرني: متى مات أبوك؟»

صمت الرجل. ثم قال بصوتٍ خافت: «في الثالثة وسبع دقائق من فجر يومٍ جمعة. كنتُ بعيداً. في المطار. وصلتُ بعد ثلاث ساعات.»

أشار العمّ إدريس إلى عقارب الساعة: كانت متوقّفةً عند الثالثة وسبع دقائق بالضبط.

«لقد توقّفت في اللحظة التي كان ينبغي أن تكون فيها بجانبه،» قال بلطف. «هي لا تريد أن تمضي إلى الأمام قبل أن تصل.»

وفي الأيام التي تلت حكاية الرجل ذي الساعة الفضية، تناقل الناس الخبر. صار الدكان يضيق بالزبائن الذين يحملون ساعاتٍ واقفة: ساعة معصمٍ توقّفت يوم الزفاف، ساعة منبّهٍ وقفت صباح

الامتحان الذي لم يُجرَ، ساعة جيبٍ لا يعرف صاحبها لماذا لا تعمل. وكان العمّ إدريس يسمع كلّ حكاية بلا استعجال، يسجّلها في دفترٍ كبير بخطٍّ منمّق، ثم يقول لصاحبها كلمةً أو كلمتين، لا أكثر، فيعود الناس إلى بيوتهم وقد خفّ عنهم شيءٌ لا يعرفون اسمه.

نظر الرجل إلى الساعة، وارتجفت عيناه. «وماذا أفعل؟»

«تذهب إلى المكان الذي كان أبوك يجلس فيه، وتقول له ما لم تقله. ثم تعود. ولا أعدك بشيء، لكنّني أعرف أنّ الساعات لا تكذب.»

ذهب الرجل. وفي المساء عاد، وقد أحمرّت عيناه، ولم يقل شيئاً. وضع الساعة على الطاولة، فإذا بها تدقّ: تكّ، تكّ، تكّ، بإيقاعٍ هادئٍ متّزن. نظر العمّ إدريس إلى الرجل، ومسح عن عينيه دمعةً لم يردها، وقال: «تفضّل. لا أجر.»

ثم أضاف، وهو يلفّ الساعة في قطعة قماشٍ ناعمة: «ما حكيتَه لي ليس ثمن الإصلاح. هو ثمن ما سأحمله أنا من بعدك.» ولم يفهم الرجل، لكنّه خرج من الدكان يمشي في الزقاق الرطب بخطواتٍ أخفّ، وقد خلت أذناه من ضجيجٍ قديم.

كانت تلك حكايةً من مئات الحكايات في ذلك الدكان. لكنّ في الركن الأعلى من الحائط ساعةً واحدةً لم تدقّ أبداً: ساعةٌ نحاسية كبيرة لها وجهٌ أبيض وعقاربان أسودان، متوقّفةٌ عند الواحدة والنصف. كان الزبائن الجدد يسألون عنها، فيقول العمّ إدريس: «هذه لا تُباع، ولا تُصلح.»

وذات ليلةٍ شتائية جاءت فتاةٌ صغيرة اسمها ليلى، في العاشرة، تحمل مظلّةً أكبر منها، وقالت: «يا عمّ، لماذا لا تصلح تلك الساعة؟» ثم قبل أن يجيب، تسلّقت الكرسي الخشبي، ومدّت يدها وفتحت الغطاء الخلفي. نظرت في الداخل بجدّيةٍ طفولية وقالت: «إنّها مكسورة من الداخل. لا من التروس، من القلب.»

ارتعش العمّ إدريس. لقد قال له أحدٌ العبارة نفسها قبل ثلاثين عاماً، حين كانت زوجته تحتضر. كانت ساعة بيتهما. وقد توقّفت في الواحدة والنصف عندما أغمضت عينيها. ومنذ ذلك الحين وهو يصلح كلّ ساعات العالم ولا يلمس هذه.

«لماذا لا تصلحها؟» سألت ليلى.

«لأنّني أخاف أن تدقّ، وأن يمضي الوقت. أخاف أن يبتعد عنّي ذلك اليوم.»

فكّرت الفتاة قليلاً، ثم قالت بحكمةٍ لا تُصدّق: «لكنّ الوقت يمضي على أيّ حال. وساعتك واقفة، وأنت تكبر. ألا يكون ذلك أكثر حزناً؟»

بقي العمّ إدريس صامتاً زمناً طويلاً. ثم أنزل الساعة النحاسية من الجدار بيدين مرتجفتين، وفتحها على الطاولة، وراح يصلحها لأوّل مرّةٍ منذ ثلاثين عاماً. لم يكن بها عطبٌ حقيقي. كانت تحتاج فقط إلى زنبرك جديد، وإلى لمسةٍ صغيرة. وحين أعاد العقارب إلى مكانها، قال لزوجته، في السرّ، ما لم يقله لأحد: «سامحيني على الغياب الطويل.»

دقّت الساعة النحاسيّة دقّةً واحدة ثقيلة، كأنها تنهّد، ثم بدأت تعدّ الثواني بإيقاعٍ وديع. نظرت ليلى إليه وابتسمت، وقالت: «هذا أجمل صوتٍ سمعتُه في حياتي.»

خرجت ليلى إلى الشارع والمطر قد انقطع، وفي يدها مظلّتها المطويّة. التفتت إليه من الباب وقالت: «هل تعرف؟ كلّ الساعات التي في دكانك تنتظر أن يصلحها أحدٌ مرّة، كما أصلحتَ هذه. لا لأنها معطّلة، بل لأنّ الجميع يحتاج إلى من يقول له إنّ الانتظار يمكن أن ينتهي.» ثم ضحكت ومضت تقفز فوق البرك، وبقي هو يتأمّل الشارع الفارغ، وقد خفّ عن صدره حملٌ لم يعرف أنّه يحمله.

وفي الأسابيع التالية، لاحظ زبائنه أنّ العمّ إدريس صار يبتسم أكثر، وأنّه يحكي لهم عن زوجته وهو يعمل. كان يقول: «كانت تكره الدقّات العالية، وتحبّ الدقّات الخفيفة. ولذلك أحبّت هذه الساعة بالذات.» ثم يمسح الغبار عن الزجاج بحنان.

ومنذ تلك الليلة، صارت ساعات الدكان كلّها تتفق، لا في الوقت، بل في الإيقاع: دقّةٌ واحدةٌ كبيرة تتردّد في الجدران كنبض قلبٍ جماعيّ. وصار أهل الحيّ يقولون إنّ في الغورية دكاناً يُعيد للناس أوقاتهم، لا الدقائق التي ضاعت، بل اللحظة التي لم يعيشوها كاملة.

— النهاية —

حمادة حامد محمود نور الدين

https://dakkan-alhikayat.netlify.app